

الله وعن معرفة معانيه ذلك لأنه لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجاحته حتى يعرض عليه والمقياس الذى يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه.

فكرته المبدأية عن النظم ص ٢٨ ، ص ٢٩ :

ولم أزل منذ قدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء فى معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفى بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة فى خفاء وبعضه كالتبنيى على مكان الخبىء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها، فوجدت المعول على أن ها هنا نظاماً وترتيباً، وتالياً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً وأن سبيل هذه المعانى فى الكلام والذى هى مجاز فيه سبيلها فى الأشياء التى هى حقيقة منها. وأنه كما يفضل هناك النظم والنظم والتأليف والنسج النسج والصياغة الصياغة ثم يعظم الفضل وتكثر المزية حتى يفوق الشئ نظيره والمجانس له درجات كثيرة. وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد. كذلك يفضل فى بعض الكلام بعضاً ويتقدم منه الشئ ثم يزداد من فضله ذلك ويترقى منزلة فوق منزلة ويعلو مرقباً بعد مرقب ويستأنف له غاية بعد غاية حتى ينتهى إلى حيث تنقطع الأطماع. وتحسر الظنون وتسقط القوى فتستوى الأقدام فى العجز.

وجملة الأمر أنك لن تعلم فى شئ من الصناعات علماً تمر فيه وتخلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ منها من الصواب ويفصل بين الإساءة والإحسان بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان وتعرف طبقات المحسنين وإذا كان هذا هكذا علمت بأنه لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلًا، بل لا تكون من معرفتها فى شئ حتى تفضل القول وتحصل. وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى الدباج وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع وكل أجرة من